دَعْنِي أَلْمِسُ قَلْبَكَ!

..دَعنِيْ أُخْرِجُ النُّوْرَ..

المعتصم بالله المؤمن

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

دعني ألمس قلبك!

تأليف العبد لله المسمّى:

المعتصم بالله المؤمن

كتبت هذا الكتاب في رمضان وأنا أرجو منك ألّا تقرأ مجرّد كلماته

بل

دعه يلمس قلبك!

هذا الكتاب لأصحاب القلوب ومحبّي الرّوحانيّة فإن كنت منهم فاشرب!

موضوعات الكتاب

١- هل خطر في بالك يوماً أنّ كلّ ما حولك وكلّ ما يدور حولك هو اللّه؟ (الصّفحة ٦)

٢- هل خطر في بالك يوماً أنّ الرّؤى أو الأحلام الصّالحة هي كلماتٌ نسمعها بلغةٍ أخرى ولذا تبدو في كثيرٍ من الأحيان غير مفهومةٍ؟ وهل تصدّق أنها ليست محصورةً بالنّوم بل كثيراً ما نرى رؤيا في اليقظة؟ (الصفحة ١٠)

٣- هل خطر في بالك يوماً أنّ الدنيا هي أشبه بالحلم نخرج منه بالموت ونعود إلى حالتنا الأصليّة؟ (الصّفحة ١٩)

٤- هل خطر في بالك يوماً أنّ القرآن هو كلام اللّه؟.. جميعنا نعلم ذلك ولكن هل أدركت يوماً حقيقةَ أنّه كلام اللّه؟ (الصّفحة ٢٤)

٥- هل خطر في بالك يوماً أنّك إذا أردت اللّه فعليك أن تكبر أوّلاً؟ (الصّفحة ٣٢)

٦- هل خطر في بالك يوماً أنّك بثلاث أعين وثلاثة آذان؟ (الصّفحة ٣٩)

٧- هل خطر في بالك يوماً أنّك عندما عرفت حلّ المسألة أو المعضلة فجأةً بعد أن يئست منها أنّ سبب هذه الفجأة هو أنّك قد أوحي إليك من اللّه؟

هل خطر في بالك يوماً أنّك عندما تبحث عن شيءٍ ضائعٍ وتلتفت إليه فجأةً دون أن تعرف أنت سبباً أو فكرةً لالتفاتك أنّ من حرّكك هو اللّه؟ (الصّفحة ٤٦)

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللّطيف الخبير ﴾ [الملك: ١٤]

هل خطر في بالك يوماً أنّ كلّ ما حولك وما يدور حولك هو الله؟

يقول الله العظيم :

﴿والله بكلّ شيءٍ عليم﴾[البقرة: ٢٨٢]

﴿والله على كلّ شيءٍ قدير﴾[البقرة: ٢٨٤]

﴿وما تعملون من عملٍ إلّا كنّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرّةٍ من السّماء والأرض إلّا في كتابٍ مبين﴾ [يونس: ٦١]

﴿ليعلموا أن قد أبلغوا رسالات ربّهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيءٍ عدداً﴾[الجنّ: ٢٨]

يقول رسوله الكريم:

" كان الله ولم يكن شيءٌ غيره .." [صحيح البخاري]

هل هناك منّا من لم يسمع بهذه الآيات الشّهيرة في حياته؟.. هل هناك طفلٌ منّا لا يعلم أنّ الله يقدر أن يفعل أيّ شيءٍ كما أنّه يعلم كلّ شيء؟

ولكن السّؤال الأهمّ: هل هناك منّا من فهم من ذلك أنّ كلّ ما حوله وكلّ ما يدور حوله هو الله؟.. بل أكثر من ذلك.. قال - عزّ وجلّ- أنّه أقرب إليك من حبل الوريد.. تراك هل أحسست أنّه بهذا القرب يوماً؟

لن أخوض في الحديث ولكن يكفي أن أضرب لك مثلاً:

تخيّل أنّ هناك قطٌّ تحت الشّجرة.. كانت معدة القطّ تؤلمه كلّ حين لدرجة أنّه اضطرّ في النّهاية أن يتخلّى عن كسله وينهض ليجد الطّعام فقد سبق وعلم أنّ الطّعام يخدّر الجوع..

في نفس الوقت كانت هناك فأرةٌ في أصل الشّجرة وقد انتبهت فجأةً إلى وجود قطعة خبزٍ فانطلقت لتحصل عليها عندما انقضّ عليها القطّ فجأةً... ولم يعد هناك فأرة.. أعني أنّ الفأرة لم تعد تعلم أوتعي بشيءٍ جديد.. وهذا ما نسمّيه -باختصارٍ- الموت!

والآن بعد أن تخيّلت القصّة وأكل القطّ الفأرة وانتهى كلّ شيءٍ فهلّا أجبت عن هذه الأسئلة:

- لم يكن القطّ يعلم بوجود الفأرة قبل أن يلمحها وينقضّ عليها ولكن هل كنت أنت من أراد أن يطعم القطّ بعد أن جعلته في خيالك محكوماً بالجوع؟

- لم تعلم الفأرة لماذا أخرجت رأسها من الحجر ورأت الخبز

فجأةً ولكن هل كنت أنت تعلم بذلك قبل أن تجعلها في خيالك تفعل ذلك؟

- لماذا لم ينصب القطّ فخّاً بدلاً من أن يتعب نفسه.. هل كنت أنت من لم يعلّم القطّ ذلك؟

- لقد توقّفت الآن عن الخيال فهل لك أن تخبرني أين هما القطّ والفأرة؟وهل أصبحت بعد أن تخيلتهما ثلاثةً أم أنّك لا زلت واحداً؟

- بعد أن انتهيت من الخيال قررت أن يصاب القطّ بالشّلل بلا مقدّماتٍ لحظة أن ينقضّ على الفأرة فلا يستطيع أن يأكلها وتنجو الفأرة بجلدها عل عكس ما حدث في المرّة الماضية فهل هناك من يمنعك من أن تقدر على ذلك؟

- وبعدما فشل القطّ في إمساكها في هذه المرّة أحسّ بسعادةٍ عظيمةٍ رغم أنّ معدته لا زالت تؤلمه.. شعورٌ غير متناسبٍ ولكن هل هناك ما يمنعك من أن تجعل القطّ يشعر بذلك؟

《ولله المثل الأعلى》

إن هذا المثال بأكمله مقصودٌ به المبدأ وليس الحرفيّة، فعندما أوجدك الله أوجدك من العدم.. أوجدك من اللّا شكل واللّا لون واللّا شعور أصلاً..

إنّ التّخيّل بالنّسبة إلينا هو ترتيب ما تعلّمناه من خلق اللّه في شكلٍ جديد..

فنحن نعلم بوجود القطّ فقد سبق ورأيناه وحفظنا حركاته وطريقة مشيه وصوته، وكذا الفأرة والشّجرة و..و..و..، ونعرف شعور السّعادة والخيبة والجوع والموت (حين النّوم) وخبرناها يوميّاً..

ولذا فعندما تخيّلنا ،إنّما رتّبنا ما علّمنا اللّه إيّاه على مدى أعمارنا وحاولنا أن نصوغ قصّةً بأسلوب اللّه الذي يرينا إيّاه كلّ يوم سواءً إن كنّا نحن أبطال القصص التي نراها أو من حولنا ولم نأتِ بأيّ شيءٍ جديد..

وبذا فهو لم يتخيّلك بل خلقك وإنّما ضربت لك هذا المثال لتفهم مبدأ القدرة فكما يقولون قدرة اللّه كالخيال في السّهولة والقدرة!

أمّا اللّه فهو أعظم وأجلّ، تعالى عمّا يقول الظّالمون علوّاً كبيراً وحقيقةً قد أبدعك وخلقك في أحسن تقويم!

﴿وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريبٌ﴾ [البقرة ١٨٦]

﴿ولنعلّمه من تأويل الأحاديث﴾ [يوسف: ٢١]

هل خطر في بالك يوماً أنّ الرّؤى أو الأحلام الصّالحة هي كلماتٌ نسمعها بلغةٍ أخرى ولذا تبدو في كثيرٍ من الأحيان غير مفهومةٍ؟ وهل تصدّق أنها ليست محصورةً بالنّوم بل كثيراً ما نرى رؤيا في اليقظة؟

قال الله تعالى: ﴿ لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ﴾ [الفتح: ٢٧]

قال رسوله الكريم: " الرّؤيا الصّالحة جزءٌ من سبعين جزءاً من النّبوة"

لقد سمّى الله عزّ وجلّ المنامات الصّادقة تارةً بالأحاديث وتارةً بالرّؤيا وإن دلّنا هذا على شيء؛ فهو يدلّنا على أنّ المنام الصّالح هو حديثٌ نراه حين ننام على هيئة صور..

وأحياناً يكون المنام صريحاً فيتحقّق كما رأيته تماماً، وفي أحيانٍ أخرى يكون غريباً وغير مترابطٍ على الإطلاق!

وإذا سأل سائلٌ: إن كان حديثاً فلم يبدو بهذه الصّور الغريبة الغير مترابطة في كثيرٍ من الأحيان؟

نجيبه بأنّك تسمع هذا الحديث بعينيك وليس بأذنيك، أي بلغة الصّور فمثلاً الشّيء الذي يسعدك في الواقع سيظهر لك في مكان كلمة

سعادة في الحديث الذي في المنام..

ومثال ذلك: إذا كنت تحبّ تناول المثلّجات فستكون صورة المثلّجات تعني بالنّسبة إليك السّعادة ولذا لا تستغرب مثلاً إذا رأيت أنّك تأكل المثلجات في المكتبة، فهذا يعني أنّك سعيدٌ في المكتبة!

وكذا إن رأيت في المنام أنّك تقتل حشرةً كريهةً -وأنت تكره قتل الحشرات في الواقع- فهذا يعني أنّك تفعل شيئاً لا تحبّه!

أعني أنّ كل صورة في المنام تعني شعورك الحقيقيّ بالنّسبة إليها، وبالتّأكيد سيختلف هذا من شخصٍ إلى آخر، فكل شخصٍ له ذوقه المعيّن في هذه الحياة..

فالشابّ يحبّ الشّعور المنعش للمثلّجات بينما يعتبره المسنّ شعوراً مزعجاً إذ يسبّب له القشعريرة والبرد الشّديد، ولذا لا تعتبر صورة المثلّجات مؤشّراً للسعادة عنده بل على العكس من ذلك تماماً!

وإذا عرفنا الآن أنّ المنامات الصّالحة هي أحاديث بلغة الصّور، فالسّؤال التّالي: من يحدّثنا؟

ويجيبك ربّك:
﴿قل لا يعلم من في السّماوات والأرض الغيب إلا الله﴾[النّمل: ٦٥]

فإذا أخبرتك الأحاديث بالغيب، ولا يعلم الغيب إلّا الله، فهذا يثبت عندك أنّ الله هو من يحدّثك وحياً أو من وراء حجابٍ أو أنّه يرسل

إلينا رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء كما قال -جلّ وعلا- في سورة الشّورى:

﴿ما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجابٍ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنّه عليٌّ حكيمٌ﴾ [الشّورى: ٥١]

لقد أثبتت الآية أنّه -عزّ وجلّ- يكلّم البشر، وذكرت كلمة 'لبشرٍ' بالنّكرة ممّا يدل على الإطلاق؛ فلا يشترط على المكلّم أيّة شروطٌ في هذا القانون الإلهيّ الكريم!

فترى الرّؤيا تكون للمؤمن وتكون للمشرك وتكون للملحد وتكون للفاسق.. يكلّم الله من يشاء ويزيد من الفضل من يشاء!

ذكر في كتاب ابن سيرين أن يهوديّاً رأى الملائكة في المنام ففُسّر له أنّه سيسلم، ولعلّه لم يصدّق ذلك ولكنّه ما لبث بعد حين أن صدق الله وأسلم اليهوديّ!

وترى الطّفلة التي لا ترغب عادةً بقراءة القرآن ولا حتّى سورة الكوثر نفسها في يوم القيامة، فأرادت أن تأخذ القرآن معها ولكن لم يكن لها منه إلا صفحةً واحدة، فتستيقظ وتقرأ فيما بعد ٣٤ صفحةً وقد ملأتها اللّهفة!

سبحان الله!.. لو شاء الله لهدى النّاس جميعاً!

وترى الغير متديّنة قريبتها في المنام حاملاً بتوأم ويموت أحدهما وتصدق الرّؤيا!

وترى الإنجليزيّة أنّ ابنها يقف جوار مطعمٍ في المقاطعة الأخرى وأنّه يواجه مشكلةً فتركب القطار إليه، ويصدق الله فتجده فعلاً بجوار المطعم هناك وعندما سألته عن حاله أجابها ألا مشكلة!.. ولكنّها أعطته رقمها كي يتّصل بها إذا حدثت له مشكلة..

وإذا صدق الجزء الأول من الرّؤيا فأين الآخر؟

وبالفعل بعد أيّام يتّصل بها ابنها ويخبرها أنّه وقع في مشكلةٍ مع أبيه فتجيبه بصدرٍ رحبٍ أنّها لا تهتمّ لما فعله وتستقبله في بيتها..

وبعد سنين يغدو هذا الابن بسبب سكنه عند أمّه مسلماً ويدخل ١٢٠ شخص الإسلام بسببه وكل هذا لأن الله عزّ وجلّ بعث الرّسالة في اللّحظة الحاسمة؛ فهل كان سيخرج من المشكلة بهذا الخير لو لم يبعث الله لأمه تلك الرّسالة لتعطيه رقمها وتتغيّر حياته؟

﴿ كلّاً نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك وما كان عطاء ربّك محظوراً﴾
[الإسراء: ٢٠]

وبذا تبيّن لنا أنّا مع الله في كلّ وقتٍ وحين، فالله يهدينا ويدفعنا يمنةً ويسرةً بيديه الرّحيمتين طيلة الوقت علّنا نستقرّ على الطريق المستقيم ولا تظنّنّ أنّها سينساك من التّذكرة والمواعظ!

﴿...فمن جاءه موعظةٌ من ربّه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون﴾ [البقرة: ٢٧٥]

وإذا سأل سائل: ولكن هل الموعظة دائماً في المنام؟.. يعني ألّا يمكن أن يعظنا الله في اليقظة؟

سأجيبه: بلى.. ألم يسبق لك أن صدمت رجلك فجأةً رغم أنّك مشيت في ذلك المكان عينه ألف مرّة ولم تصدمها يوماً؟

هذا كان إنذاراً أنّك تفعل أو ستفعل برجلك شيئاً خاطئاً أو لأنّك تفكّر في لحظتها بشيءٍ خاطئٍ ووعظك الله ومن هذا النّوع من المواعظ الكثير!

كثيراً ما نقول عندما نغتاب أحداً ويصيبنا مكروهٌ ما أثناء ذلك: 'ملائكته حاضرة'.. والحقيقة أنّها موعظةٌ من الله ليخبرنا أنّنا نفعل شيئاً خاطئاً فالغيبة كلّها حرامٌ وليس فقط غيبة هذا الشّخص!

سيقول قائل: إذا كنّا سنعاقب آنيّاً على أشياءٍ بسيطةٍ كهذه، فما بال المجرمين والفاسقين وحتّى الكفّار والمشركين؛ يفعلون ما يحلو لهم ولا يعاقبون البتّة؟

سنقول له -أنا وأنت- أنّ الله يمهل ولا يهمل.. ومن المعلوم في الحديث الشّريف أنّ الأنبياء هم الأشدّ بلاءً بين الخلق ثمّ الأمثل فالأمثل وبهذا فالذين ذكرتهم من الأشرار هم في أواخر القائمة وبالتّالي فنسبة بلائهم في الدّنيا قد تكون حتّى معدومة!.. ولكن انتظر لتراهم في الآخرة.. وحينها هل ستحسدهم؟

بينما إذا كنت تتعرّض لإنذاراتٍ كهذه عندما تخطئ فعليك أن تفرح

لأنّك لست في حثالة القائمة!.. وكلّما زادت الإنذارات فهنيئاً لك فهذا يعني أنّك ترقى مقترباً من الأنبياء والصّالحين!

فالله ينذرك لأنّه لا يريد لك أن تكسب السّيئة فتخسر نصيبك من رحمته وذلك حبّاً بك.. فالله هو الصّمد وقد سبقت كلمته أنّه من جاء بالسّيئة قد كُبّ وجهه في النّار، ولكنّه -في نفس الوقت- الرّحمن فهو ينذر من يحبّ ويبعدهم عن السّيئة حتّى لا يكبّهم في النّار!.. أفرأيت رحمة الله!!

وسأعود إلى أصل الحديث بعد أن قلت لي:
- ألم تقل في العنوان أنّ هناك رؤيا في اليقظة فأين هي يا رجل؟!

في الواقع هذه الرّؤية أحياناً تكون عامّةً وأحياناً تكون كثيرةً لأهل الخصوص جعلنا ربّنا منهم.. آمين!

إليك مثالاً.. زوجان، أرادا أن يعيدا تنظيم التقسيم الهندسيّ لغرف البيت علّه يصبح أكثر وسعاً.. وأخذا بالتّفكير والنّقاش؛ نضع المطبخ هنا، أو ربّما هناك.. والحمّام ضعه هنا.. لا هذا مكان المطبخ!

وعلى هذه الحال لم يصلا إلى ما يرضيهما ونهضت الزّوجة لتنظّف الصّحون ولا زالت الأفكار تدور في ذهنها، ولكن.. لقد يئست، لم تجد حلّاً!

ومضت بالتّنظيف عندما.. فجأةً تمثّلت صورةٌ لمخطط البيت أمامها كالحلم.. لقد حوت تلك الصّورة الحلّ وحلّ الله المشكلة.. فسرعان ما

تقبّل الزّوج الفكرة وشرعوا بتنفيذها.. واليوم يعيش الزّوجان مع ستّة أبناء في ذاك البيت الذي سبق ورتّبه الله لهم ليتّسعوا فيه جميعاً! في الواقع نحن نمرّ بمواقف كهذه دائماً ولكن بدلاً من أن نشكر الله وننسب له الفضل، نقول: هذه فكرتي؛ فكرتي أنا!

وفي الحديث القدسيّ (أرزق ويحمد غيري...)..

ومن الأمثلة الشّائعة في ذلك هو ما يسمّونه بالحاسّة السّادسة.. نسمّي العين حاسّة لأنّنا نحسّ بها بالضّوء، ونسمّي اللّسان حاسّة لأنّنا نحسّ به بالطّعم وهكذا..

ويسمّون الإلهام الحاسّة السّادسة لأنّنا نحسّ به بالغيبيّات.. ولكنّهم لم ينتبهوا - أو أنّهم انتبهوا وتجاهلوا- أنّه لا عضو يحسّ بهذا الإحساس كالعين أو اليد أو اللّسان، إنّما هو.. الله!

يحسّ التّوأم بأخيه من بلدٍ إلى آخر، وتحسّ الأمّ بولدها أينما كان ولا يربط بينهم ولا سببٌ ماديٌّ واحد يجعلهم يحسّون ببعض سوى أنّهم جميعاً عباد الله وجميعهم -علموا أم لم يعلموا- أنفسهم مرتبطةٌ بالله..

فكما عندما تتصّل من جوّالك إلى جوّال أخيك وتكلّمه لا تنبعث الإشارة من جوّالك إلى جوّاله بل تذهب إشارة جوّالك إلى برج الاتّصالات ويعيد البرج بثّها إلى جوّال أخيك وعندما يتكلّم أخوك يحدث العكس وهكذا دواليك..

ولله المثل الأعلى.. فعندما يحسّ الولد بالألم يعلم الله به، ولأنّ الله

-عزّ وجلّ- يعلم شدّة حبّ واهتمام أمّ الولد بولدها فهو يلهمها بذلك، فالله يلهمك ما أنت متوجّهٌ إليه ومهتمٌّ به..
مثال ذلك ما روي لي أنّ أمّاً كانت تحبّ ابنتها ذات العام الواحد كثيراً.. وعندما كانت تترك البنت عند جدّتها -أمّ زوجها- وتذهب مع زوجها إلى السّوق كانت تقول لزوجها كلّ حينٍ وآخر: 'الآن استيقظت!'.. 'الآن نامت'.. ' إنّها تبكي الآن'..

وعندما تكرّر هذا كثيراً قرّر الزّوج أن يتأكّد من ذلك فعندما كانت زوجته تقول شيئاً من هذا القبيل كان يتّصل بأمّه ويسألها عن صحّة ذلك.. ولدهشته كانت أخبار زوجته الغيبيّة صحيحة.. عندما تقول أنّ ابنتها تبكي، كانت تبكي بالفعل.. عندما تقول أنّها نامت، كانت تبكي بالفعل!

أرأيت؟.. سبحان الله!.. لو سألت تلك الأمّ عن كيفيّة ذلك لما عرفت بم تجيبك؛ إذ لا يصل بين الأمّ وابنتها إلّا الله!

هذا مثالٌ من العامّ فإليك أمثلةٌ من الخاصّ:

في أحد السّنين الغابرة التبس هلال ذي الحجّة على المسلمين فهرعوا إلى أحد الصّالحين علّه يأتيهم بالجواب.. وبالفعل دخل المحراب وأخذ بصلاته وما لبث أن خرج قائلاً ما معناه:
- يبدأ ذو الحجّة اليوم!

وعندما سألوه عن كيفية معرفته قال ما معناه:
- صلّيت ورفعت يديّ بالدّعاء وإذا بصورة النّاس على عرفاتٍ تتمثّل

أمامي فعرفت أنّ ذو الحجّة يبدأ اليوم!

وكان ما قال!.. لقد سأل الله بعد الصّلاة رافعاً يديه بالدّعاء فمن البديهيّ أنّه -عزّ وجلّ- سيجيبه؛ فلو كنت مكانه هل كنت ستوقن بمثل يقينه؟.. ولذا هي خاصّة فالله يكلّم بهذه الطّريقة من يخلص له ويفهمه!

آخر في هذا الزّمان كان يصلّي وخطر له أن يدعو لقريبته المصابة بمرض كورونا.. وبالفعل رفع يديه ليدعو لها بالشّفاء عندما تمثّلت أمامه صورةٌ ليدٍ تكتب على الورق..

لم يدرك المعنى للوهلة الأولى ثمّ فهم أنّ الله كان يقول له أنّ هذا مكتوبٌ ولا بدّ منه.. وبالفعل بعد أيّام توفّيت المرأة وقد انتهى أجلها!

أخرى كانت تصلّي وخطر لها أن تسأل الله عن نفسها.. تُراها صالحةٌ أم طالحةٌ أم ما هي؟.. وفجأةً تمثّلت لها صورة خلّاطٍ كهربائيّ..

في البداية ظنّتها فكرةً عابرةً ولكن بعد ثوانٍ تذكّرت الآية:
﴿وآخرين اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً عسى الله أن يتوب عليهم إنّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾ [التّوبة: ١٠٢]

وهنا أدركت أنّ صورة الخلّاط الكهربائيّ كانت هي الإجابة على سؤالها فهي مخلّطةٌ في أعمالها.. ومن هذا الكثير والله أعلم!

إذا كان ما ذكرته لم يشفي ظمأك من العلم فليس لك إلّا الله ليعلّمك فاعبده وتوكّل عليه فلن تجد العلم إلّا بين يديه!

﴿وما الحياة الدّنيا إلّا لهوٌ ولعبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

هل خطر في بالك يوماً أنّ الدنيا هي أشبه بالحلم نخرج منه بالموت ونعود إلى حالتنا الأصليّة؟

قال الله العظيم:
﴿ويوم يحشرهم كأن لّم يلبثوا إلّا ساعةً من النّهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ [يونس: ٤٥]

﴿يوم ينفخ في الصّور ونحشر المجرمين يومئذٍ زرقاً ◇ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلّا عشراً ◇ نحن أعلم ما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقةً إن لبثتم إلّا يوماً﴾ [طه: ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤]

قال رسوله الكريم: "يستيقظ النّاس يوم القيامة كالنّائم.."

ننام كلّ يوم ونستيقظ كلّ يوم.. وبعبارةٍ أخرى، نموت كلّ يومٍ ونبعث كلّ يوم.. ويسأل سائلٌ: إذاً ما بالنا نخاف من الموت بينما نغضب إذا منعنا أحدٌ من النّوم؟

الجواب أنّ هذا كلّه بسبب الأمل!.. أجل، الأمل وحده من يقنعك أنّه مجرّد نومٍ وستستيقظ ثانيةً رغم أنّ احتمال الجلطة -لا قدّر الله- أو الموت بشتّى طرقه يصبح أكبر عند النّوم والغفلة!

دون الأمل لن تطيب لك حياةٌ ولا نومٌ.. فلو عرفت وأنت ذاهبٌ إلى النّوم أنّك ستنام للمرّة الأخيرة ولن تستيقظ ثانيةً، فستكره النّوم كما تكره الموت، وبذا فإنّ النوم بلا أملٍ في الاستيقاظ، هو نفسه الموت الذي هو عديم الأمل أصلاً، فكلّاهما سمّاهما اللّه بالوفاة!

عندما ننام نتوقّف عن التّعلم أو الشّعور بهذا العالم ونغدو بعيدين عن مكانه وزمانه، ينام الطّفل ثمان ساعات ولا يشعر بالوقت في حين أنّه لا يطيق الجلوس لثماني دقائق في مكانٍ واحد.. وترفعه وتضعه في سريره الذي لا يحبّه ولا يعترض!

عندما تنظر إلى هذا الطّفل -معتبراً- وهو ساكنٌ في نومه بلا كلمةٍ ولا حراكٍ لن تشعر إلّا برهبة الموت تحلّق حوله!

﴿وهو الذي يتوفّاكم باللّيل ويعلم ما جرحتم بالنّهار ثمّ يبعثكم فيه ليقضى أجلٌ مسمّى ثمّ إليه ترجعون ﴾ [الأنعام: ٦٠]

ولكن أين هو هذا الطّفل وهو نائم؟.. نحن من علينا أن يجيب عن هذا السّؤال، فنحن نمرّ ولا زلنا نمرّ بهذه التّجربة آلاف المرات، أحياناً في اليوم مرّتين أو ثلاثة.. وتكفي ١٠٠ مرّةٍ ليعتبر الإنسان خبيراً فما بالنا بعد آلاف المرّات وعشرات السّنين من التّكرار لا نحسن الإجابة فضلاً عن أن نكون خبراء؟!

ستقول لي: ما دمت تتظاهر بهذا الذّكاء فأجب أنت عن هذا السّؤال!

أنا -عبدٌ للّه- لا أدّعي العلم والذّكاء ولكنّ اللّه منّ عليّ؛ أعطاني

التّجربة..

فعن نفسي، أنا لا أملّ حين أنام فأنا أنتقل من مكانٍ إلى مكانٍ ومن زمانٍ إلى زمانٍ.. وحتّى شخصيّتي تنتقل من صورةٍ إلى أخرى.. وأجرّب مشاعر عدّةً ويعلّمني الله ما يعلّمني.. وأحياناً يخبرني بما سيفعل بي في الدّنيا..

يبدو وكأنّني في عالمٍ آخر عالم يختلف عن هذا العالم بأنّه لا يملك ثوابت.. أجل، الدّنيا ثابتة فما تركته البارحة ستجده اليوم وما كسرته لن يعود لوحده كما كان.. وإذا كنت في مكانٍ لن تصبح فجأةً خارجه!

ببساطة الدّنيا هي حلمٌ ثابتٌ مستمرّ.. لماذا سمّيته حلماً؟.. لأنّه يختفي.. ف "عندما بدأت قراءة هذا الكتاب"، صارت في ذهنك صورةً كالصّورة التي رأيتها في منامك البارحة.. لا يمكن تعديلها أو إعادتها على الإطلاق؛ صارت حلماً!

أثناء النّوم أنت تحلم في كلّ لحظةٍ ولكن لا تذكر بعد أن تستيقظ إلّا لقيطاتٍ -هذا إن تذكّرت- وهكذا سيحدث عندما تستيقظ يوم القيامة لن تذكر من الدّنيا بطولها -ولو عشت مئة سنةٍ- إلّا لقطاتٍ لو قُدّرت لقُدّرت بيومٍ أو بعض يومٍ كما أخبرنا الله في كتابه العزيز:

﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ◇ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يومٍ فاسأل العادّين ﴾ [المؤمنون: ١١٣]

أتريد أن تعيش في اللّا حلم؟.. هذا ليس هنا فالدّنيا ماهي إلّا لهوٌ

ولعب.. ما هي إلّا كسرابٍ بقيعةٍ يحسبه الظّمآن ماءً كما في سورة النّور!

الدّنيا باطل.. والباطل هو الذي لا يدوم.. ربّما قبل مئات السّنين من الآن كان هناك معركةٌ داميةٌ في المكان الذي أنت جالسٌ فيه الآن وربّما لو رأيتها لبكيت تأثّراً ولك أن تتخيّل كم كانت مصيريّةً لأهلها.. كم من حبيبٍ فارق حبيبه، وكمٍ ثريٍّ فارق أمواله، وكم من حسناء فارقت جمالها وكم.. وكم.. وكم..

والآن أرني أثّراً واحدّاً منها، أثراً واحداً من مؤثّراتها!.. بل لم يعد هناك دليلٌ أصلاً أنّها كانت موجودةً إلّا الذكريات والتّاريخ؛ يعني ببساطة صارت حلماً في أذهان أصحابها!

إذاً لا نريد أن نعيش في الباطل!.. نريد عكسه.. وما هو عكس الباطل؟.. طبعاً إنّه الحقّ!.. وما هو الحقّ حتّى أذهب إليه؟.. فيجيبك ربّك:

﴿ذلك بأنّ الله هو الحقّ وأنّ ما يدعون من دونه هو الباطل وأنّ الله هو العليّ الكبير﴾ [النّور: ٦٢]

إذا قرأت في كتب الربّانيين المتصوّفين وقرأت قصص الأولياء والمقرّبين ستجدهم غالباً يذكرون الله باسمه: **الحقّ** بدلاً من أيّ اسمّ آخر.. لقد علموا منذ الآن -منذ الدّنيا- أنّ الله هو الحقّ المبين!

﴿فذلكم الله ربّكم الحقّ فماذا بعد الحقّ إلّا الضّلال فأنّى تصرفون﴾ [يونس: ٣٢]

فإذا كانت الدّنيا الباطلة حلماً واستيقظنا منه يوم القيامة عدنا إلى الله الحقّ.. عندنا إلى أصلنا؛ خلقنا الله وعدنا إليه، ومجدّداً نحن بين يديه وقد زال حجاب الدّنيا عن أعيننا..

ليتك تدرك ما أعني!.. وإذا كنت من أولي الألباب فستفهم ما أعني.. تخيّل أنّ كلّ ما حولك وهمٌ وقد تلاشى.. أين ستكون؟.. أنت لوحدك؛ لا شيء حولك البتّة، ولكنّ الله في كلّ مكان..

إذاً.. أنت وحدك مع الله!!!

أنت بين يديّ الله فأخبر نفسك -ولا تخبرني- :أين ستختبئ من الله؟.. أين عندما يقول لك -كما قال لك من الأزل-: ألست بربك؟.. هل ستقدر على الإجابة؟.. أم أنّك ستكون من الذين وقع عليهم القول بما ظلموا فهم لا ينطقون؟

﴿قل صدق الله فاتّبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾ [آل عمران: ٩٥]

﴿... إلّا هو معهم أين ما كانوا ...﴾ [المجادلة: ٧]

هل خطر في بالك يوماً أنّ القرآن هو كلام اللّه؟.. جميعنا نعم ذلك ولكن هل أدركت حقيقةَ أنّه كلام اللّه؟

يقول ربّنا العظيم:

﴿ومن يعشُ عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين ◇ وإنّهم ليصدّونهم عن السّبيل ويحسبون أنّهم مهتدون ◇ حتّى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾
[الزّخرف: ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨]

وقال رسوله الكريم: "ذكر اللّه نور ما بين السّماء والأرض"

في أحد المناسبات تركتك عائلتك وبقيت لوحدك في البيت..

تركك زوجكِ إلى عمله وبقيتِ لوحدك في البيت..

أنت أصلاً تعيش وحيداً في شقّتك..

لا أنت لست وحيداً على الإطلاق ولم تكن وحيداً يوماً ولن تكون أيضاً.. اللّه معي؛ اللّه شاهدي؛ اللّه مطّلعٌ عليّ!

تلك الجمل الثّلاثة علّمها خالٌ لابن أخته الصّغير عندما اقترب منه وهو يصلّي، قال له كرّر هذه الجمل لثلاثة أيّام.. وبالفعل اجتهد الصّبيّ في تردادها قبل النّوم.. بعد النّوم.. كلّما تذكّر.. أراد بكلّ قلبه أن ينفّذ وصية خاله!

ذلك الصّبيّ هو الشّيخ الوليّ سهل بن عبد الله التستريّ الذي قطعت شهرته الآفاق وأذيعت كراماته في البلاد وتخلّلت الكتب والتّاريخ..
من أين كانت بدايته؟
من: الله معي، الله شاهدي، الله مطّلعٌ عليّ!

لعلّ ذلك الصّبيّ لم يردّد تلك الجمل بلسانه بل ردّدها بقلبه.. أنا معك في أنّ الأطفال لا يفعلون ذلك عادةً ولكنّ الله أراد لهذا أن يفعل، أراد أن يصنع لنا آية!

ترانا هل قلناها بقلوبنا يوماً؟.. لكن السّؤال الأهم هو: كيف نقولها بقلوبنا أصلاً؟.. يقولون اقرأ القرآن بقلبك لا بعينيك.. الكلام سهلٌ ولكن العمل.. كيف؟

ربّما أستطيع أن أخبرك عن طريقةٍ لذلك وكما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "ربّ مبلّغٍ أوعى من سامعٍ"!

نحن عندما نقرأ القرآن نقرأه سطحيّاً لأنّنا سبق وقرأناه، فالنّفس لا تحبّ الإعادة بطبيعة الحال ولذا فهي لا تشارك في العمل ما لم نجبرها على ذلك فهي تمقت الأعمال التي لها نصيبٌ منها.. تحاول التفلّت لأنّها كالطّفل لا تفهم مصلحتها.. وخذ دليلاً على صحّة هذا

الأمر أنّه مشتركٌ بين الشّعوب فالإنجليزيّين مثلاً يسمّون النّفس: الطفل الذي في داخلي!

The child inside me said ......

إذاً عندما يرفض طفلٌ نحيلٌ الطّعام فأمّه ترغمه على أكله وأحياناً تضربه أيضاً؛ وما هذا إلّا شفقةً منها عليه وحبّاً به فهو لا يعلم أنّه يقتل نفسه بإعراضه.. ونحن أيضاً سنفعل ذلك مع أنفسنا ولكن مجدّداً.. كيف؟؟؟

الجواب أخيراً: افتح المصحف ومن ثمّ افتح.. صدرك!

لا.. لم أعني الثياب التي على صدرك كما هو شائعٌ خطأً.. بل افتح نفسك ذات الصّدر خاصّتك وقلت ذات الصّدر لأنّ الله يسمّيها كذلك:

﴿إنّه عليمٌ بذات الصّدور﴾ [الملك : ١٣]

افتحها فهي منكمشةٌ على بعضها.. افتحها؛ تخيّل نفسك تفتح صدرك فعلاً فهذا سيساعدك كثيراً.. افتحها وعلامة فتحها أن تشعر بانشراحٍ في صدرك!

في الواقع لا أخفيك أنّها ستحاول المقاومة فهي كالورق الملفوف تحاول أن تعود إلى لفّتها السّابقة ولكن.. ولو بعد جهدٍ ستعتاد على وضعها الجديد.. والمكسب معك!

افتحها واقرأ الآيات وأنت مقتنعٌ أنّ الله من يقولها.. فنحن -للأسف-

فصلنا القرآن عن الله؛ فقد حفظنا أنّ القرآن هو العمل الذي يقرّب إلى الله ونسينا أنّه أصلاً كلام الله.. نسينا أن نسمعه من الله!

ولكن.. تذوّقه الآن بنكهة الانشراح وسترى أنّها نكهةٌ أخرى؛ مختلفةٌ تماماً عن سابقتها.. تلك النّكهة التي صار المسلمون الجدد هم فقط من يعرفونها لأنّهم قرؤوا القرآن لأوّل مرّةً وهم بالغون ويعلمون أنّه كلام الله.. كان جديداً بالنّسبة إليهم ولذا لم ترفض نفوسهم أن تشارك في قراءته..

وعندما تذوّقوا تلك النّكهة لم يفارقوها بعد، هل تصدّق أنّ العديد منهم كان قبل أن يسلم يحمل النّسخة المترجمة للقرآن أينما يذهب لكي يقرأ فيها وهي مجرّد ترجمة وليست الأصل؟!

أين نحن من هذا؟.. أيعقل أنّنا نحن العرب -أهل القرآن- منّا من لا يسمع القرآن إلّا في مناسبات العزاء بينما بعض الغير مسلمين يحملونه معهم أينما ذهبوا؟!.. هناك سرٌّ.. أكيد هناك سرّ!!

أجل.. السّرّ في صدرك والمفتاح بين يديك.. فافتح صندوق الكنز يا أخي.. افتح!

الخُبر منك والخَبر وفيك السّرّ وأنت مرآة النّظر عين العيان

هذا بيتٌ من الأنشودة الشّهيرة لأبي مدين التّلمساني التي مطلعها:
اشرب شراب أهل الصّفا ترى العجائب
مع رجال المعرفة والوقت طائب

أجل.. دعونا نشرب شراب أهل الصّفا.. دعونا نكون من أصفياء اللّه بدلاً من أن نكون من أصفياء الدّول الأجنبيّة ليعطونا جنسيّتهم.. جنسيّة الجحيم تلك التي تجعلك تبتعد عن الأراضي المباركة وتحبّ الأراضي الرّجسة التي غلب عليها التّاريخ وهي تحت أقدام الكفّار!

ولكن..

- سمعت هذا الكلام وأكثر منه ألف مرّةٍ وحاولت قليلاً ولكنّني صراحةً لا أستطيع أن أتخلّى..

- هذا صعب!.. بل شديد الصّعوبة!.. أنا لا أستطيع!

- وماذا أشكّل أنا من مليار مسلم؟.. سواءٌ إن تغيّرت أم لا فلن يخسر سواي..

- لا أريد.. أنا أحبّ حياتي هكذا ولا أريد أن أغيّرها..

هذه هي أجوبة العرب المحزنة.. العرب وليس المسلمين؛ لأنّ الإسلام بريءٌ من أمثال هؤلاء المتخاذلين الذين شوّهوا صورة الإسلام فهو بريءٌ منهم كلّ البراءة... يا اللّه!.. ما أشدّ الجهل المتفشّي بيننا!

أتدري لم يقولون هكذا؟.. لأنّ اللّه قيّض لهم شيطاناً فهو لهم قرينٌ وإنّه ليصدّهم عن السّبيل ويحسبون أنّهم مهتدون.. يحسبون أنّهم المسلمون الذين سيشفع لهم رسول اللّه لكي يدخلوا الجنّة مع أنّهم

لم يشفعوا لأنفسهم أولاً لكي يدخلوا في شفاعة رسول اللّه!

- يعني لماذا قيّض الله لهم شيطاناً؟.. أيريد أن يضلّهم وهم على دينه؟

الجواب: أنّ اللّه الصّمد.. وعندما قال ﴿ومن يعشُ عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرينٌ﴾ جعلها قانوناً في الأرض فعندما انشغلنا عن ذكر الله -خير الأعمال وأحبّها إلى اللّه- ما كنّا من عباد اللّه المخلصين الذين استثناهم ربّنا من سلطة الشّيطان الرّجيم..

ولا حتّى كنّا مقاربين لهم لكي تخفّ سلطة الشّيطان عنّا بل كنّا للأسف من أولياء الشّياطين؛ لا نذكر اللّه إلّا لثواني في الصّلاة -وننشغل في باقيها- وهذا من الصّلاة إلى الصّلاة.. رغم أنّ هذا في الواقع.. من صفات المنافقين..

﴿وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يراءون النّاس ولا يذكرون اللّه إلّا قليلاً﴾ [النّساء: ١٤٢]

اعذرني، فلعلّي قد قسوت في الكلام قليلاً ولكن هذا صدقاً غيرةً على دين اللّه وغيرةً على أهله؛ غيرةً عليّ وعليك.. أتكلّم بقلبي الذي يغلي رغبةً في فعل المستحيل!

تجاهد امرأةٌ حديثة الإسلام من مانشستر لكي تضع قطعة الحجاب على رأسها.. تتعرض للبصق والشّتم والسّخرية والأذى لعشرات السّنين لكي تكون الفسيفساء الأولى في لوحة الإسلام في مانشستر..

تتحمّل المستحيل لكي ينشأ أولادها على الإسلام ولا تقول أنّها مجرّد امرأةٍ واحدة ولن يكون لها أثر، فهي على الأقل قدوة أولادها، بينما...

تجاهد المرأة منّا لكي تسكت أهلها وتستطيع أن تخلع الحجاب.. تنبذ كلّ شيءٍ من أجل وظيفتها حتّى عدّة الطّلاق أو الوفاة وتزعم أنّها ضرورةٌ، مع أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يسمح لتلك المرأة التي كانت في عدّة الوفاة أن تداوي رمد عينها بالكحل كي لا تتجاوز حدّاً من حدود العدّة ولو حتّى بتلك الضّرورة.. فإنّ الأمر جِدّ!

جِدٌّ يا نساء المؤمنين، جِدٌّ يا رجال المؤمنين فأنتم مسؤولون عن تصرّفات نساءكم بل أنتم محرومون من الهداية بسببهنّ؛ نعم محرومون بسبب أزواجكم.. بسبب بناتكم.. بسبب أخواتكم!

ما دليلي؟.. دليلي أنّ الله العظيم قال:
﴿فإنّ الله لا يهدي من يُضِلّ وما لهم من ناصرين﴾ [النّحل: ٣٧]

عندما تعبر ذاهباً إلى المسجد مثلاً أو حتّى إلى أيّ مكانٍ آخر وترى امرأةً كاسيةً عاريةً في طريقك فأين دينك حينها؟

لقد أضلّتك تلك الغاوية!.. فبذا فبقانون الله الآنف الذّكر قد حُرمت هي من الهداية وحرمت أهلها الذين تركوها تخرج بهذه الصّورة فأضلّوا بها؛ لقد حرمتهم من الهداية.. ودون الهداية ستزداد ويزدادون ضلالاً وإلى أين سنصل في النّهاية؟

مرّت كلّ تلك الأجيال لقرابة ألف وثلاثمئة سنةٍ ونساءهم يلبسن

الجلابيب ويسترن حتّى وجوههنّ.. وبعد الاستخراب -وليس الاستعمار- الأوروبيّ للوطن العربيّ صارت النّساء ترتدي البرنيطة ثمّ الإشارب -وإشارب بالمناسبة كلمة فرنسيّة درجت بسبب الاحتلال وتعني المنديل- وتراهنّ قد حرمن من الهداية فسمحن لبناتهنّ اليوم بأن يرتدين الإشارب الملوّن والبنطلونات الضّيّقة.. وهؤلاء المحرومات غداً س... أجارنا الله من غدٍ!

لا أريد منك شيئاً إلّا أن تعتبر نفسك أهمّ قطعة فسيفساء في لوحة الإسلام.. دونك ستبدو اللّوحة مشوّهة.. ستتسبّب لوحدك بجعل اللّوحة بكلّ فسيفساءها مرفوضة.. سترمّي أمّةً من بعدك في النّار..

أنت على ثغرٍ من ثغورنا.. عندما يسألونك من أنت.. فأنت المسلم فلان.. وليس فلان المسلم!

﴿يا أيّها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبّئكم بما كنتم تعملون﴾
[المائدة: ١٠٥]

يا أيّتها النّفس القلقة احيي بالله وعيشي لله وكوني لله يكون الله لك ويقول لك:
﴿يا أيّتها النّفس المطمئنّة ◇ ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّةً ◇ فادخلي في عبادي ◇ وادخلي جنّتي﴾ [الفجر: ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠]

﴿من كان يرجو لقاء الله فإنّ لقاء الله لآتٍ وهو السّميع العليم﴾ [العنكبوت: ٥]

هل خطر في بالك يوماً أنّك إذا أردت الله فعليك أن تكبر أوّلاً؟

-لقد أذّن الظّهر منذ ساعتين.. هيّا انهض وإلّا فاتتك الصّلاة!
- أمّي!.. لا زال هناك وقتٌ؛ لن يؤذّن بعد خمس دقائق!

الحوار الدّائم بين الأمّ وأولادها.. يعتبر الطّفل صلاته مسؤليّةً لا تحتمل ويحاول التّهرّب منها حتّى آخر فرصة.. يؤذّن للصّلاة التّالية وهو على السّجّادة لا يزال يصلّي السّابقة ومع ذلك لا يُتبعِها بالصّلاة التالية بل يتركها حتّى آخر فرصةٍ عند الأذان التّالي.. ولا نعاتبه؛ إنّه طفلٌ وهو غير مكلّفٍ بالصّلاة أصلاً!

ويكبر جسد الطّفل ليغدو رجلاً في داخله نفس الطّفل الذي يتمنّى لو لا يصلّي ولا يقطع دنياه بهاتين الدّقيقتين اللّتين من المفروض ألّا تكونا من الدّنيا..

إنّه طفلٌ؛ ليس لأنّ وجهه لا زال أملساً بل لأنّ إرادته لا زالت ملساء ورغبته لا زالت عمياء ويحتاج بعد العمى من يقوده ويدلّه ويقول له:
- ليس بيننا وبينهم إلّا ترك الصّلاة.. فهل يعقل ألّا تصلّي؟.. احذر

ستكون إذاً من الكفّار وتنال منك النّار!

هذا ليس كلامي.. معروفٌ أن الإنسان طفلٌ مهما كبر حتّى أنّه عندما يطعن في السّن وتزول حواجز الدّماغ المسنّ تعود تصرّفاته إلى تصرّفات الطّفولة تماماً.. فيغدو من يعتني بهم يلاعبهم ويلاطفهم كالأطفال مع أنّ أحفادهم صار لديهم أطفال!

ترى هل هناك في هذا العالم رجلٌ يحوي في داخله رجلاً؟.. هل هناك امرأةٌ تحوي في داخلها امرأة؟

يعني هل هناك من إرادته خشنة تحتكّ بالعوائق وتمنعها من المرور ببساطة.. هل هناك من يبصر نفاسة ما يريد ويبذل الغالي والرّخيص لأجل أن يحقّقه؟

هل هناك من فكّر واعتبر حتّى وجد أنّ الدّنيا حلمٌ ينطوي تحت أرجلنا وأمام أعيننا؟.. هل هناك من نبذ هذه الباطلة بعد أن عاين بطلانها وبحث عن الحقّ؟

هل هناك من أبصر الحقّ بباصرة قلبه وعكف على عبادته غراماً به وهياماً بجماله فصار كيانه إليه، إليه؟
ترى هل هناك في هذا العالم من يضيق صدره عندما يضطرّ لأن يقطع صلته بالله لدقيقتين من أغراض الدّنيا؟

أجل!!!!.. أجل؛ بعدد نجوم السّماء، أجل.. بعدد شعر رأسك، أجل!.. في هذه اللّحظات التي تقرأ فيها هناك بلا شكٍّ حول العالم ٦٥٨ وليّاً في

أقطار الأرض.. جميعهم جعلوا همومهم همّاً واحداً.. جعلوا همّهم في الله ولله وبالله.. أولئك هم أولياء الله.. أولئك عندما يُرون، يُذكر الله!

ترى عندما يرانا أحد أصدقاءنا ماذا يخطر له؟.. أيخطر له الله، أم يخطر له ال.....؟

ولكن أولئك الذين لا خوفٌ عليهم ولا يحزنون.. أولئك الذين هم من فزعٍ يومئذٍ آمنون.. أولئك الذين لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون.. أولئك الذين قال عنهم الرّسول الكريم أنّهم عندما يرون يذكر الله!

ماذا تشتهي نفسك.. السّيادة والجاه، البلاد المتطوّرة، التّكنولوجيا والرّفاهية؟
مسكين!.. أنت مسكين، فهذه الأشياء من الدّنيا والدّنيا لم تعد موجودةً الآن -في الآخرة- ولذا إذا كنت خالداً في ما اشتهت نفسك فأنت في جحيم؛ فما تشتهيه غير موجود ولن يوجد بعد الآن!

هم يشتهون الله؛ يشتهون القربى من الله؛ وبشّرهم الله؛ هم في ما اشتهت أنفسهم خالدون!

لقد سادوا أنفسهم وكانوا ذوي جاهٍ عليها، لقد طوّروا علاقتهم بالله وعاشوا متطوّرين من طورٍ إلى طورٍ أرقى منه، وفي رحمة ربّهم كانت أرواحهم مرفّهةً برضوانه في الدّنيا ويوم الدّين كانوا بعدها ليس من النّاجين بل من الفائزين!

- وما الفرق؟.. النّاجي والفائز سواء!

كلّا!.. ما هما بالسّواء.. إذا قرأت في كتاب إحياء علوم الدّين للقطب الغزاليّ فستعلم أنّهما ليسا سواء.. كلّنا نسعى لأن نكون من النّاجين:

نصلّي الخمس حتّى لا نحاسب على ترك الصّلاة فهي أوّل ما يحاسب عليه العبد.. نصوم رمضان حتّى لا نحاسب على ترك الصّيام فصيام الدّهر لا يعادل يوماً من رمضان...

نحجّ لأنّه دين اللّه.. ونجعل المسبحة تعدّ المئات لكي نقول يوم القيامة أنّنا من الذّاكرين.. ونصلّي على النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم حتّى لا يعاتبنا وينالنا وصف البخل.. والباقي سيغفره اللّه.. أكيد سيغفره.. ألم يقل أنّه غفورٌ رحيم؟!

يعني باختصار؛ لا نمشي إلّا بالعصا.. ولكنّنا في النّهاية مشينا ونجينا من النّار -إن شاء اللّه- ولو على حفّة جهنّم ولكن نجونا؛ تغمّدنا اللّه برحمته لأنّنا كنّا نقول: لا إله إلا اللّه، محمّدٌ رسول اللّه.. ولم نكن من أهل النّار ونجونا.. هيّا نحتفل ..هي!!!

وفجأةً رفعنا رؤوسنا ورأينا آلاف البشر فوقنا.. لماذا؟.. كنّا نصلّي مثلهم ونصوم معهم.. واحتكّت أكتافنا بأكتافهم في الحجّ سويّاً.. لماذا صاروا فوقنا؟.. لماذا؟!!

فيقول لنا الملائكة:
- هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون!.. هل ظننتم أنّ اللّه سيجعل

من هرول إليه كمن سيق إلى جنّته بالسّلاسل؟!

وحينها يقع القول علينا بما ظلمنا فلا ننطق.. أجل، نحن من كنّا نصلّي بسرعة البرق ونعدّ الزّكاة حتّى ونحن ندفعها بحدودها الدّنيا ونصيح في أنفسنا: هذا كثير!!

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " عجبت لقومٍ يدخلون الجنّة بالسّلاسل!"

وبعدها صارت الجنّة لنا كالدّنيا وإن كانت خاليةً من المكدّرات.. كلْ، اشرب، تزوّج.. أليس هذا ما تشتهيه نفسك؟.. أنت لا تشتهي القربى من الله العظيم.. لقد اكتفيت بأن تأكل ولا تسمن وتملك ولا تخسر.. وقد نلت ما أردتَ ولكن.. لا تنظر إلى الأعلى إذا كنت لا تريد أن تنال منك حسرة أهل الجنّة في الجنّة!!

ولكنّ السّؤال :هل نستطيع أن نعيش الأبد دون أن ننظر إلى الأعلى؟!

- كفى!!.. لا زلنا في الدّنيا ولا ضرورة لنبحث عن حلولٍ لأمورٍ لم تقع بعد وقد لا تقع مطلقاً!
- وما العمل إذاً الآن؟.. هل أفهم من كلامك أنّك لم تعجب بحال النّاجين؟
- بإمكانك أن تقول ذلك.. ولكن ما سبيل الفوز؟.. لقد ذكرت أنّ عدد الأولياء قرابة الأربعمئة فما احتمال أن أكون منهم وأنا واحدٌ من أكثر من مليار مسلم؟

احتمالها هو نفس احتمال فوزك بمسابقةٍ يشارك بها الآلاف لتكون الفائز الوحيد بالمليون دولار.. فرغم كلّ ذلك العدد يكون عندك الأمل الكافي لكي تشارك وتبذل قصارى جهدك راجياً الفوز، فجائزة المليون دولار فرصةٌ لا تفوّت.. أفمن المعقول أن تتاح لي فرصة المشاركة ولا أشارك فيها؟!

إنّ الفوز بالسّباق إلى الله يتطلّب جهداً يسحق حبّ الدّنيا تحته وصبراً على كلّ امتحانٍ وبلاء حتّى تمرّ بالتّصفيات وتكون بعدها من المقرّبين ولكن...

- ولكنّني حاولت.. بصدقٍ حاولت.. ولكنّي فعلاً لم أقدر على مقاومة كلّ تلك المغريات!.. لقد كانت أقوى منّي!

حسناً..حسناً.. لا تقنط؛ المهمّ أن تبقى تحاول فأنت لا تدري متى تأتيك نفحة الله التي يرفع همّتك بها وبصدقك إلى عليين!

وفي كلّ الأحوال ثِق أنّ الله أكرم من أن يجعلك كعموم النّاجين إن لم تكن من خصوص الفائزين.. فقد بذلت جهداً حاشى لله أن يظلمك إيّاه.. ربّما لم تهرول أو تمشي إليه.. لكنّك مشيت بضع خطوات.. يعني على الأقل جئت الله بغير جرٍّ أو سحبٍ بالسّلاسل!

إنّك لا تقدر على نفسك ومع ذلك تريد أن تكون من الفائزين؟.. حسناً إليك ذيل الحلّ.. ابدأ الصّلح مع الله!!

يحكى أنّ أحدهم كان في قافلةٍ تعرّض لها قطّاع الطّرق فقتلوا ما

قتلوا منها ونهبوا ما نهبوا ثمّ جلسوا ليأكلوا ممّا سلبوا وكان هذا معهم.. وعندما قدّم اللّصوص الطّعام لزعيمهم رفض قائلاً:
- إنّي صائم!

فتعجّب صاحبنا منه وسأله:
- أتقتل وتسرق وأنت صائم؟
- إنّي على صلحٍ بيني وبين اللّه!

وبعد سنةٍ أو سنتين يجد صاحبنا زعيم اللّصوص في الحجّ وقد اصفرّ لونه وشحب.. فسأله عن هذا الحال العجيب فقال له ما معناه:
- أرأيت ذاك الصّلح بيني وبين اللّه، فقد تبت بعدها..

لقد تاب كبير اللّصوص وأخذ يقوم ويصوم حتّى اصفرّ ونحل وها قد وجده في الحج، لم؟.. لأنّه أرى اللّه من نفسه خيراً وجعل بينه وبين اللّه صلحاً فتاب اللّه عليه وهدى!

وحتّى في هذا الزّمان، العديد من الأجانب يبدؤون الصّلاة أو الصّيام قبل أن يسلموا فيرى اللّه منهم خيراً فيشرح قلوبهم بعدها ويمنّ عليهم بالإسلام وهذا ما يقولونه بألسنتهم!

ونحن أيضاً فلنعمل عملاً صالحاً ولا نشرك بعبادة ربّنا أحداً.. فهذا الطّريق القويم الذي حدّده لنا ربّنا حينما قال جلّ وعلا:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً﴾ [الكهف: ٣٠٠]

《والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإنّ اللّٰه لمع المحسنين》 [العنكبوت:]

﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها أو آذانٌ يسمعون بها فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصّدور﴾
[الحجّ: ٤٦]

هل خطر في بالك يوماً أنّك بثلاث أعين وثلاثة آذان؟

"لولا أنّ الشّياطين تحوم على قلوب بني آدم لنظروا في ملكوت السّموات والأرض" [حديث شريف]

عندي لك سؤالٌ لم يخطر على بال الكثيرين:
-هل سبق ورأيت صورةً للذرّة؟.. نعم؛ الذرّة التي بانشطارها اخترعوا القنبلة الذريّة.. هل سبق ورأيت صورةً حقيقيّةً واقعيّةً لها؟

طبعاً، لا.. لأنّهم لم يروها يوماً.. لقد تخيّلوها بناءً على معلوماتهم وتصوّروها بالشّكل الذي يرسمونه لنا دائماً.. وبالفعل عندما أقاموا التّجارب عليها نجحوا في شطرها مع أنّهم.. لم يروها يوماً!

عندما تدخل غرفتك وهي مظلمةٌ وتبحث عن شيءٍ معيّن ستمشي خطواتٍ مدروسةً وتمدّ يدك إلى أماكن مخصوصةً رغم أنّك لا ترى إلّااللّون الأسود.. فكيف؟

إذا تفكّرت فستدرك أن ترى الغرفة بغير عينيك.. بالفعل هناك صورةٌ

للغرفة متمثّلةً أمامك ولكن ليست تلك الصّورة المألوفة التي تعطيك إيّاها عيناك!
إنّها صورةٌ من ذاكرتك وتراكم المعلومات حول غرفتك وأغراضك ولذا تتشكّل في دماغك صورةٌ هي أشبه بصورة الرّادار ترشدك في غياب عينيك!

وفجأةً مددت يدك في الدّرج ووجدتّ شيئاً ناعماً وأملساً مع أنّك لا تذكر أنّه موجودٌ هنا.. وأخذت تتلمّسه وتتحسّسه وشيئاً فشيئاً تتمثّل صورةٌ جديدةٌ أمامك محاولةً تحديد ماهيّة هذا الشّيء وتقريبه إلى أقرب شبيه تعرفه.. وكلّ ذلك دون استخدام عينيك!

ولكن.. فجأةً يتحرّك هذا الشيء الأملس النّاعم فازداد إلى الصّورة التي تتمثّل أمامك خاصيّةٌ لا توجد إلّا في الأحياء غالباً.. وبذا ضاقت دائرة توقّعاتك وتوقّفت عند خيارٍ بغيض!

فتنتفض مذعوراً لتأتي بالضّوء.. وحينها آسفٌ لإخبارك أنّه كان جرذاً مختبئاً في الدّرج!.. وهذا ما حدث حقّاً لأحد قريباتي!

الذي قصدتّه من هذين المثالين -اللّذين نرى فيهما بأدمغتنا ومعلوماتنا- هو أنّنا بالفعل تمرّ علينا أحوال نرى فيها بغير أعيننا ومع ذلك فالأمر اعتياديٌّ بالنّسبة إلينا لدرجة أنّنا لا نلاحظه!

قال أحد الصّالحين: يقولون افتح عينيك لترى بينما أقول أغمض عينيك لترى!

- نغمض أعيننا لنرى؟!.. وكيف نرى ونحن مغمضون العينين؟

وهذا أمرٌ اعتياديٌّ آخر لا نلاحظه: كيف ترى الرّؤى الصّالحة وأنت نائمٌ مغمضٌ عينيك؟

ومثالٌ مدهشٌ آخر هو قصّة عمر بن الخطاب الشّهيرة حين نادى فجأةً في خطبته:
- يا سارية الجبل.. الجبل!

تمثّلت له صورة الصّحابيّ سارية وهو في معركته فناداه عسى يصعد الجبل وسمع سارية نداءه على بعد آلاف الكيلو مترات وأطاعه فوراً وكان هذا سبباً جعله الله لينصر المسلمين في تلك المعركة!

هذه القصّة العجيبة تعطينا المثالين سويّاً.. العين الثّالثة والأذن الثّالثة.. سبحان الله!.. أيعقل أن يكون للبشر مثل هاتين الحاسّتين المدهشتين التي توفّر عنهم الكثير من العناء، حتّى أنّها توفّر عليهم التّكنولوجيا والاتّصالات ومع ذلك لا يستخدمونها؟!

أجل!

- وما دليلك على صحّة هذا الكلام؟

إذا أردتّ دليلاً فاسأل ربّك فهو سيجيبك:
﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ وأولئك هم الغافلون﴾

[الأعراف: ١٧٩]

ترى لماذا شبّههم الله بالأنعام؟.. ببساطة لأنّ الأنعام لا تبصر إلّا ما أمامها وخاصّةً إذا كان يوافق هواها وكذلك لا تسمع إلّا ما يهمّها ولذا فهم غافلون عن أمورٍ أكثر قيمةً وأهميّةً!

أعيننا وآذاننا الثّالثة في قلوبنا وللأسف قلوبنا عليها وقْرٌ.. ولكن أحياناً يشفّ هذا الوقر قليلاً عند غياب الشّهوات أثناء النّوم فنستطيع أن ننتفع منهما شيئاً بسيطاً فنرى رؤية صالحة بإذن الله!

أمّا إذا كانت قلوبنا معرّضةً للهواء الطّلق وليس عليها كثير وقْرٍ أو حجابٍ فحينها حدّث ولا حرج!.. حينها انظر أعاجيب الله في مخلوقه العجيب الإنسان!

اشرب شراب أهل الصّفا ترى العجائب

مع رجال المعرفة والوقت طائب

تزخر الكتب التي تحفظ قصص الأولياء بالأعاجيب الخارقة التي لا يصدّقها الكثيرون وذلك لأنّهم لم يفقهو معنى أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير.. وأنّ الله قادرٌ على الدّنيا، أكثر بكثيرٍ جدّاً من قدرتنا على تخيّل الأعاجيب والخوارق!

يعتقدون أنّ الدّنيا لا بدّ تسير هكذا بقوانين الجاذبيّة والقوى، ولم يلحظوا حتّى أنّ الله هو واضع القوانين وصاحب القوى.. إنّه هو من يجذب الأجرام العملاقة بقوّته الهائلة وهو الذي يوازن جاذبية الذّرّة بقدرته الفائقة.. يعني يكفيك أن تعلم أنّه.. الله!!!

إنّ أولياء الله هم الذين منحهم الله من ما منحه لنبيّه عليه الصّلاة والسّلام من مزايا خارقة كانت سيعطيك إيّاها لو سلكت سبلهم وصدقت صدقهم!

وبذا فيؤسفني أن أقول أنّنا إن لم يكن عندنا من هذا أنّ أعيننا الثّالثة رمداء وآذاننا الثّالثة صمّاء.. وبالفعل لا أحوج منّا إلى طبيب!

طبيب القلوب، وربّي وربّك؛ اللّه!!.. إنّنا لم نطلب منه العلاج بعد ولكن لا نظنّن أنّه لا يعالجنا الآن.. فكلّ تلك الكرب والمكدّرات في الدّنيا ما هي إلّا أدويّةٌ مرّة الطّعم لقلب ابن آدم العليل.. الذي يأبى إلّا أن يموت بعلّته!

﴿يا أيّها النّاس قد جاءتكم موعظةٌ من ربّكم وشفاءٌ لما في الصّدور وهدىً ورحمةٌ للمؤمنين﴾ [يونس: ٥٧]

ولكن هناك أمل.. بعضهم شفي بالفعل وفتح عينه وأذنه ثانيةً بعد طول صمٍّ وعمى.. وقد كان سميعاً بصيراً سابقاً عندما ولد وقبل أن يلوّث بالدّنيا والشّهوات ويتراكم الصّدأ على قلبه!

﴿إنّا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾ [الإنسان: ٢]

وقال النّبي صلّى الله عليه وسلّم: "يولد كلّ مولودٍ على الفطرة فوالداه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه"

ربّما تعني الآية السّابقة العينين والأذنيين المادّيتين ولكنّها تعني في كنهها السّمع والبصر المعنويين أيضاً، فعندما أراد الله -عزّ وجلّ- أن يذكر النّظر والسّمع المادّيين قال:

﴿ألم نجعل له عينين ◇ ولساناً وشفتين﴾ [البلد: ٨ ، ٩]

ويتبيّن الفرق والله أعلم..

﴿ولو جعلناه أعجميّاً لقالوا لولا فصّلت آياته أأعجميٌّ وعربيٌّ هو للذين آمنوا هدىً وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقْرٌ وهو عليهم عمىً أولئك ينادون من مكانٍ بعيد﴾ [فصّلت: ٤٤]

ويتبيّن في هذه الآية الدّليل الحرفيّ لما ذكرناه فالله يشفي بكلامه -القرآن- الذين آمنوا.. في حين أنّ الذين لا يؤمنون في آذانهم -الثّالثة- وقْرٌ؛ وليس المادّيتين لأنّهم لا يزالون يسمعون الأصوات المادّية في الواقع..

كما أنّه على قلوبهم عمىً.. وليس على أعينهم المادّيّة فهم لا يزالون يبصرون الصّور والأضواء المادّيّة ولكنّ أعينهم الثّالثة هي من أعميت حقيقةً!

وفي النّهاية أولئك ينادون من مكانٍ بعيد؛ فمهما ناديت الأصمّ ولوّحت للأعمى ولو كنت بقربهما فأنت كأنّك تناديهما من مكانٍ بعيدٍ لا يشعران بك ولا يستجيبان لك!

﴿وما كان لبشرٍ أن يكلّمه اللّه إلّا وحياً أو من وراء حجابٍ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنّه عليٌّ حكيمٌ﴾
[الشّورى: ٥١]

هل خطر في بالك يوماً أنّك عندما عرفت حلّ المسألة أو المعضلة فجأةً بعد أن يئست منها أنّ سبب هذه الفجأة هو أنّك قد ألهمت من اللّه؟
هل خطر في بالك يوماً أنّك عندما تبحث عن شيءٍ ضائعٍ وتلتفت إليه فجأةً دون أن تعرف أنت سبباً أو فكرةً لالتفاتك أنّ من حرّكك هو اللّه؟

أفضل شعورٍ هو شعورٌ ربّما لم تشعر به في حياتك!

شعرت بوجوده ولكنّك لربّما لم تذقه بحدّ ذاته..

شعورٌ غريب الطّعم كأنّما مزجت الطّعوم الأربع سوّيّاً واستخرجت ما لم يذقه قبلك إلّا قلّةٌ من مليارات البشر الذين رحلوا عن دنيانا والذين لا زالوا يصارعون فيها!

لكن!.. إذا أردتّ أن تذوقه فعليك أن تتوقّف عن محبّة السكّر لوحده.. أو الملح لوحده.. أو القهوة أو.. أو.. أو...... وتجعل سعادتك كلّها شيئاً

واحداً!
وذلك كما تتوقّف عن أكل الطّماطم لوحدها والفليفلة لوحدها و..و.. من أجل أن تجعل منهم في النّهاية حساءً هو ألذّ وأطيب!

عليك أن تفرغ قلبك حتّى تجعله يتّسع لأكبر قدرٍ ممكن من طبخة اللّذّات الملكيّةِ.. وأعني ما أقول بالحرفيّة!

يعني باختصار: هل كنت يوماً عبداً للّه؟

حسناً.. ليس ليومٍ؛ لساعة.. أقبل بساعةٍ.. ساعةٍ لم تفكّر فيها بغير اللّه ولا لوهلة.. هل حدث لك ذلك؟.. هل استطعت أن تسبّح خمس دقائق وأنت كالخيط المشدود إلى اللّه؟.. الخيط المشدود الذي لا يمكن جذبه يميناً ولا شمالاً وإلّا انقطع!

أعني بهذا التّسبيح أن تغيب عمّا حولك وتنسى حتّى نفسك.. ربّما لم نستطع أنا ولا أنت على ذلك.. ولا حتّى خمس دقائق.. يا ربّ!.. لا غرو إذاً أنّنا لا زلنا نحبّ الدّنيا.. لا غرو أنّنا لا زلنا نحلم ببرغر الدّنيا السّريعة التي تسعدنا لوهلةٍ وتسبب لنا السّمنة والمرض بقيّة العمر..

كلّ يومٍ تأتينا الفرص والدّعايات من اللّه إلى اللّه ونتزاور عنها جهلاً وتجاهلاً.. كلّ يومٍ يضيع لنا شيءٌ ويرشدنا اللّه إليه حتّى دون أن ندعوه.. ويدعنا نأخذه حتّى دون أن نحمده..

يقيسون الإنسان بذكاءه ويقاس ذكاءه بسرعة ذاكرته.. كلّ لحظةٍ أنت تذكر وتتذكّر وإن لم تشعر.. ولكن لو شعرت يوماً بألمٍ في رأسك أو

ضعفٍ في ذاكرتك فستدرك كيف كان الله معك في كلّ لحظةٍ يمنحك الذّكرى ويذكّرك فأنت حينما تنسى تضغط على رأسك، تحاول أن تذكر وتصرخ أخيراً (وأحياناً تكون رافعاً رأسك إلى السّماء):
- ما كانت هذه؟

تراك من سألت؟.. المهمّ أنّه قد أجابك!
يجيبك الكريم الذي سألته فتذكر ولكنّك تفرح وتسهو عنه غاطساً في دنياك.. ما هي الذّاكرة؟.. ومن يجري قانون الكهرباء التي تتقافز بين عصبوناتها؟

تقريباً كلّما كتبتُ فقرةً من هذا الكتاب أشعر بأنّي عاجزٌ عن تكملته.. وأنّي أجهل من أن آتي بمحتواه، فأصرخ:
- يا ربّ ماذا أكتب؟

وبمجرد أن أُنادِي، أُنادَى ويملأ الكريم كفّاي فتنطلق إصبعاي وأكتب ما أعتبر فيه أنا قبل أنت.. هل كان ذلك أنا؟.. لا، باللّه!

أكثر ما أرى فيه مدد الله هو.. الفكرة!

من منّا لا تخطر بباله الأفكار ويقول: جاءتني فكرة.. خطر على بالي فكرة!.. نحن نعترف بأن الفكرة خطرت خاطراً على بالنا وليس نحن من صنعها ولكنّنا نتبع ذلك بالقول: هذه فكرتي أنا!!

وضع أحدهم رنّة جوالٍ مختلفةٍ لهاتفه، بدلاً من الرنّات الموسيقيّة وظنّها فكرةً جديدةً، ولكن لم تمرّ أيّامٌ قبل أن يسمعها من جوّال

قريبه فلان ومن قريبه فلان.. ومن الشّارع.. ومن.. ومن....

يعني كيف قرّروا جميعاً أن يغيّروا رنّة هواتفهم في نفس الوقت رغم تباعد العلاقات فيما بينهم أو حتّى انعدامها؟.. لو كنّا في قاعة امتحانٍ لقلنا أنّ الطّلّاب قد تغاشّوا من بعضهم من ورقة طالبٍ واحد.. ولكن هنا نحن في الدّنيا وكلّ منّا في همّه منشغلٌ عمّن سواه!

أحياناً أرغب في أن أتحدّث مع أحدهم في أمرٍ بكلّ قلبي ولكنّني أعتقد أنّ فرصة ذلك معدومةٌ.. وما تمرّ أيّامٌ أو حتّى ساعاتٌ قبل أن يخلق الموقف المناسب فجأةً وأجد الحديث مع ذلك الشّخص في ذاك الأمر صار مقبولاً!

وهذا صدقاً حدث معي أكثر من مجرّد مرّة.. ترى من رأى ما في قلبي ورتّب لي الحادث والحديث؟

أحياناً أتساءل: ما الذي دفعني لأكلّم أحدهم بتلك الكلمات التي لم تكن لتعجبني عادةً؟.. وأغلي ضيقاً؛ لم قلتها؟.. ما كان يجب أن أقولها!

ويأتي الجواب بعد قليلٍ لأدرك أنّ كلماتي -دون أن أقصد- ردّت على ما كان محاوري يفكّر فيه.. وكانت كلماتي في مكانها!

ترى من سمع ما في قلبه ودفعه عنّي؟.. للأسف، رغم رأفته، شككت برحمته..

يوميّاً نجلس جلساتٍ عائليّةً ونخوض في أحاديث متنوّعةٍ ويشارك

كلٌّ منّا برأيه ويدلي بدلوه ونتسابق ضمنيّاً في أنفسنا من الذي يأتي بالتّعليق المبتكر أوّلاً حتّى يحظى بالإعجاب ويضحك الآخرين..

وحدث وقرّرت يوماً أن أراقب كلماتي ولا أتكلّم كلاماً زائداً وخاصّةً إن كان تعليقاً ساخراً مؤذياً.. وهكذا صارت تأتي الفرص وتلمع في ذهني التّعليقات ولكنّي أرغم نفسي بصعوبةٍ ألّا أغتنمها..

ولكن ما أذهلني في هذا أنّ كلّ فكرةٍ كنت أحبسها كانت بعد ثوانٍ تأتي للآخرين ويتكلّمون بها.. أجل، مهما كانت الفكرة كانت تخطر لهم عندما أتركها بشكلٍ ملفتٍ للنّظر، جعلني أعيد التّجربة مراراً وتكراراً بنفس النّتيجة!

اللّه موجودٌ حتّى ونحن بين أصدقاءنا وأقرابنا؟.. اللّه هو من يعطينا الأفكار ويحرّك ألسنتنا؟

وهنا يسأل السّائل: إذا كان اللّه هو من يلهمنا دائماً فلم لا تكون كلّ أفكارنا بيضاء ولا يخطر لنا الذّنب أصلاً؟
ويجيبك ربّك:
﴿بل هي فتنةٌ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾ [الزّمر: ٤٩]

يعني في ورقة الامتحان التي كتبها أستاذك الذي يأمل نجاحك، تحوي الأسئلة ذات طابع الاختيار ثلاثة اختياراتٍ؛ اثنان خطأ وواحد صحيح.. ماذا ستختار؟

وكذا نحن في هذه الدّنيا، عندما قال اللّه لنا أنّه سيبتلينا، يعني أنّ

ليس كلّ ما يخطر لنا أو يكون في متناول أيدينا هو الصّحيح.. بل علينا أن نختار منهم الصّحيح؛ علّنا بعدها نفوز بالدّرجات في هذا الامتحان الملكيّ!

أجل.. دائماً يروون لنا قصصاً خيّاليّةً عن الملوك الذين يفرضون شروطاً صعبةً على من يتقدّم لخطبة بناتهم، فمن ينجح يكسب ويتزوّج الأميرة الجميلة ويصبح ثريّاً ويصبح من العائلة المالكة!

ولكن أمّا إذا فشل فستكون رقبته ثمناً لفشله!.. يا له من عقابٍ وبلاء!.. منّا من يعتقد أنّ الخاطب في هذه القصص مجنونٌ يخاطر بحياته..
ومنّا من يرى أنّه بطلٌ يضحّي من أجل المجد والحياة الكريمة..
ولكن في النّهاية هي مجرّد قصّةٍ وحتّى رقبة بطلها هي مجرّد وهمٍ لا يمتّ إلى واقعنا بصلةٍ!

ولكن ماذا إن كنّا نحن جميعاً -بنو البشر- في مثل هذا النّوع من السّباق المصيريّ.. ماذا لو كان الفشل يعني لنا موت السّعادة في نار جهنّم التي لا موتٌ فيها ولا حياة..

عندما تضيق صدورنا نصرخ جزافاً: سأموت!.. سأنتحر!

نأمل أن ينقذنا الموت من حالنا المقيت.. ولكن في جهنّم، لا موت، لا مفرّ.. تخيّل حياةً يكون أسمى أحلامك فيها هو الموت.. هذه -بلا مبالغة- لا حياةٌ و لا موت!

ولكن إذا نجحنا فسنتزوّج السّعادة ونعيش مكرمين في قصور اللّا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون!

ليس بيدك الآن أن تقرّر فيما إذا كنت ستشارك في هذا السّباق أم أنّك لن تغامر.. فأنت الآن في ميدانه.. اسمك الآن إمّا في أعلى أو في أسفل قائمة ترتيب المتسابقين.. والانسحاب طبعاً ممنوع وهو بمثابة الفشل تماماً.. أنت الآن فعلاً يحدق فيك الخطر من كلّ جوانبك.. أنت الآن فعلاً بحاجةٍ إلى دعاء سيّد البشر (صلّى اللّه عليه وسلّم):

" اللهمّ اجعل لي في قلبي نوراً، ومن بين يديّ نوراً، ومن خلفي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، اللهمّ اجعل لي نوراً"

كنت في ماراثون وأنت تبذل جهداً مستحيلاً لكي تتقدّم المتسابقين الذين أمامك دون أن تستنزف قواك.. وانعطفوا وانعطفت معهم.. أو هممت بذلك ولكن هناك من ناداك عند المنعطف قائلاً:
- هؤلاء مخطئون.. إنّما طريق الفوز من هنا!

فالتفتّ لترى فتىً جميل الصّورة يدلّك على بابٍ خشبيٍّ على عكس الطّريق الذي سلكه النّاس.. وتتباطأ سرعتك وأنت تتّخذ القرار.. أصدّق هذا الفتى فأعاكس كلّ أولئك المتسابقين وأدخل هنا؟.. أم أتجاهل هذا الفتى وأركض مع المجموع؟.. ولكن ماذا لو كان هذا الفتى محقّاً وكنت في النّهاية مع الخاسرين؟!

قرارٌ صعبٌ.. ولكنّك تجد نفسك في النّهاية تترك الجوّ الصّيفيّ

المشمس وتدخل من ذاك الباب الخشبيّ.. وفي لحظة تخطّت رجلك عتبة الباب، تحوّل شعور الحرّ والعرق إلى جوٍّ من البرودة واللّطف.. ما.. ما هذا؟!

وتجرّب ثانيةً؛ تخرج من الباب فيعود إليك شعور الحرّ وتسمع صخب الحياة العاديّة وتدخل في الباب فتحسّ بالبرود والسّكينة وكأنّه بابٌ بين عالمين.. فتترك عالمك ويعجبك العالم الآخر!

تدخل في ذاك الباب أكثر فتزداد هدوءاً وطمأنينةً أكثر.. وتجد أمامك شجرةً عاليةً منتشرة الأغصان في جوٍّ من النّور يحيط بالمكان ممّا جعل ما حولك أبيض وصافياً بصورةٍ لطيفةٍ ورقراقة!

ودون أن تحار تجد نفسك تجلس عند الشّجرة معلّقاً عينيك بالنّور الذي يتراءى لك من الأعلى، خلال أغصانها.. وترتاح.. وترتاح روحك، جوارحك وأفكارك.. تجلس بالسّاعات تتأمّل ذاك النّور ولا تملّ.. فسعادتك -الهاربة دوماً- أقامت أخيراً في صدرك.. أليس ذلك هو عين مطلوبك؟!

هذا المشهد بكلّ تفاصيله ليس من بنات أفكاري.. فهو وإن كان ليس واقعاً عايشته بجوارحي، إلّا أنّه كان رؤيةً عاينتها بكلّ جوانحي!.. كان أكثر ممّا كان؛ كان كلمةً من الرّحيم الرّحمن!

﴿وتلك الأمثال نضربها للنّاس لعلّهم يتفكّرون﴾ [الحشر: ٢١]

وفي الختام فإنّك إذا رأيت الله في كلّ جوانب حياتك - في كلّ دقيقةٍ منها- حقّقت نصف المراد وهو الإيمان ويبقى عليك النّصف

الآخر..

العمل الصّالح وهو بطبيعة الحال نتيجة النّصف الأوّل..

وهنا يقول قائل: فما بالي أنا أقوم بالنّصف الثاني حتّى لو لم أحقّق الأوّل تماماً؟

لا!.. لم أقصد بالعمل الصّالح تلك الأشياء التي يفعلها طفلٌ صغير وإن كانت طبعاً من مسبّبات العمل الصّالح..

﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً﴾ [الكهف: ١١٠]

إنّ العمل الصّالح الحقّ هو الإحسان.. أن تعبد الله كأنّك تراه.. أن تعيش كلّ ثواني حياتك بفكرةٍ واحدة.. بهمٍّ واحد.. ما هو هذا الهمّ؟

الله!

يعني إذا لم تفعل هذا وبقيت متأرجحاً بين الدّين والدّنيا؛ ساعةٌ لك وساعةٌ لربّك كما -للأسف- يقولون.. فحينها عندما تحاول الوفود على مولانا الله وتطرق الباب، ستسمع الجواب كما سمعه غيرك بأذنه الثّالثة:
﴿وقال الله لا تتّخذوا إلهين اثنين إنّما هو إلهٌ واحدٌ فإيّاي فارهبونِ﴾ [النّحل: ٥١]

...تمّ بفضل مولاي الله...

عزيزي القارئ:

قرأت كتابي فلي عندك طلبان..

أن تدعو لي فدعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجاب..

وأن تحاول نشره ولو إلى شخصٍ واحد..

جزاك اللّٰه ألف خيرٍ وأرضاك برضاه!